

من أسس نقد النثر عند العرب / دراسة موازنة بين القرآن والنثر

م.د.حسن محمد كاظم

جامعة القاسم الخضراء / كلية العلوم

Among the foundations of prose criticism among Arabs / A study of a balance
between the Qur'an and prose

Dr. Hassan Muhammad Kazem

Al-Qasim Green University / College of Science

Hassan.m@science.uoqasim.edu.iq

Abstract

The foundations of prose criticism among Arabs are the balance between the Qur'an and prose on the one hand, and the balance between prose and prose on the other hand. Balancing is a form of criticism characterized by bad from good, and it shows strength and weakness in the methods of statement, as it requires strength in literature and insight into the Arabs' ways of expression. Souk Okaz witnessed many equilibriums that indicate an advanced mentality and an innate taste. Among these equilibriums is the equilibrium made by Umm Jundub between Amri al-Qays and Alqamah al-Fahl in describing their horse.

Al-Nabigha Al-Dhubyani was the pre-Islamic poet who made balances between poets from above his red dome. And if balancing is a form of criticism, and prose is one of the arts that has been subjected to much criticism, so the balances between its texts are among the most important methods of its criticism and development.

With God's help, we will conduct critical balances between prose and types of Arabic speech.

Keywords (criticism, prose, balancing, the Qur'an, rhetoric, al-Rumani, al-Jurjani)

ملخص البحث :

اسس نقد النثر عند العرب هي الموازنة بين القرآن والنثر من جهة والموازنة بين النثر والنثر من جهة أخرى والموازنة ضرباً من ضروب النقد يتميز بها الرديء من الجيد وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان فهي تتطلب قوة في الأدب وبصراً بمناحي العرب في التعبير وشهد سوق عكاظ الكثير من الموازنات التي تدل على عقلية متقدمة وذائقة فطرية ومن هذه الموازنات الموازنة التي عقدها أم جندب بين أمريء القيس وعلقمة الفحل في وصف فرسهما.

كما كان النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي الذي يعقد الموازنات بين الشعراء من فوق قبته الحمراء. وإذا كانت الموازنة ضرباً من النقد، والنثر من الفنون التي تعرضت للنقد الكثير لذا كانت الموازنات بين نصوصه ومن أهم أساليب نقده وتطوره. وسوف نعلم بعونه تعالى الى إجراء موازنات نقدية بين النثر وأنواع من الكلام العربي.

الكلمات المفتاحية (نقد , نثر , موازنة , القرآن , الخطابي , الرماني , الجرجاني)

المقدمة :

تناولت في بحثي الموسوم من أسس نقد النثر عند العرب (الموازنة) وبحثت عن الموازنة بين القرآن والنثر من جهة والموازنة بين النثر والنثر من جهة أخرى بالاعتماد على آيات من القرآن الكريم وإشارات الفقهاء المشهورين (الخطابي , الرماني , الباقلاني , الجرجاني) وغيرهم من أصحاب البلاغة والفصاحة في خطبهم المشهورة ورسائلهم وجميع فنون النثر المشهورة واعتماد الموازنة على زمنية النص

وفردة النص والانبهار في تحقيق الغرض ومراعاة قدسية النص والنظر الى كلام البشر من شعر ونثر فيه الوحشي والغريب والدخيل والمولود والاعتماد على بعض المصادر المهمة للجاحظ , وعبد القاهر الجرجاني في الرسالة الشافية وغيرهم ومن الله التوفيق.

أولاً : الموازنة بين القرآن والنثر

القرآن الكريم كتاب سماوي أنزل من لدن خبير حكيم وهو معجزة الخلق الخالدة ما أن سمعه العرب عرفوا بأنه نظم خارج عن عاداتهم في النظم والتأليف ولكنهم وصفوه معاندين بالشعر تارة وبالنثر تارة والسجع تارة ثالثة.

إن القرآن الكريم وإن كان منزلاً بالحرف العربي وكلماته كلماتهم إلا أنه ليس بشعر ولا نثر بل هو قرآن كريم وقد عبر عن نفسه بنفسه فأشار الله تعالى الى ماهية القرآن (الله نزل أحسن الحديث مثابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلتين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء)⁽¹⁾

اجتمعت عليه الجن والأنس قاطبة على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فالقرآن ليس بشعر ولا نثر ولا سجع بل هو نظم خارق للعادة والطبيعة إذ (ليس الأعجاز في نفس الحروف وإنما هو في نظمها واحكام رصفها...)⁽²⁾

أن سبب هذا النظم العجيب هو البلاغة الحقة فالقرآن يمثل القانون والقدرة والذوق أي المعاني والبيان والبديع⁽³⁾.

فالقرآن وهو اللسان كمثل وراثه الأجناس فإذا كان الوالدان يمتلكان صفات أصلية تنحدر من جنس واحد كأن يكون عربياً فأن الأبناء لا يخرجون عن نطاق صفات والديهما ومن ناحية أخرى فإن لكل ابن شخصية خاصة به تميزه عن غيره من إخوانه وتميزه بذلك عن شخصية والديه⁽⁴⁾ فالشعر منهج خاص والنثر كذلك والسجع أسلوب خاص ضمن أسلوب النثر كلها تشترك بصفات أصلها القرآن ومنه تأخذ الأجناس الأخرى.

وقد آمن العرب ومنذ القرون الأولى بهذا النمط العجيب وتقرده فلذلك لم تشهد الساحة العربية في القرون الأولى التي تلت نزول القرآن نوعاً من الموازنات بين القرآن والأجناس الأخرى لعلمهم البيهني بفضل القرآن على سائر الكلام المعروف وأنه ليس من جنس ما تكلموا ونطقوا ولكن ما إن حل القرن الرابع الهجري حتى ظهر العديد من الموازنات المقصودة والتي حفلت بها كتب الأعجاز القرآني خاصة والأدب العربي عامة.

¹ - سورة الزمر - الآية 23

² - ينظر : من حديث الشعر والنثر (المجموعة الكاملة) : طه حسين : 577

³ - تمهيد , الأوائل وتلخيص الدلائل : الباقلائي . تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر , ط1 - 1987 : 177 - 178 .

⁴ - ينظر : اعجاز القرآن في ضوء اللسان العربي المبين : حمزة فاضل (رسالة دكتوراة) جامعة بغداد , 1998

: 101-100 .

لقد كان هدف نقاد الأعجاز القرآني التوصل الى فرض علمي يبرهنوا من خلاله أساس التفوق وهل أن الخلق الديني هو الدافع أم العلم أساس التفضيل.

لقد إستطاع النقاد ومن خلال النصوص التي عاشوا في ظلها تحقيق نوع من الموازنة الشريفة بين القرآن والنثر وكان أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 386 هج) في طليعة النقاد الذين وازنوا بين القرآن والنثر.

عقد الرماني موازنته ضمناً في باب البلاغة وخاصة في سم الإيجاز وهو أحد أقسام البلاغة العشرة (1) لقد إستطاع الرماني عقد موازنة بين قوله تعالى : (ولكم في القصاص حياة) (2) وقول أحد البلغاء : (القتل أنفى للقتل).

إستطاع الرماني أن يبين أسباب تفوق الآية الكريمة على القول النثري مسنداً رأيه الى مقومات أربع (إنه أكثر في الفائدة وأوجز في العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة وأحسن تأليف بالحروف المتلائمة) (3)

إن عبارة (القتل أنفى للقتل) مفيدة حسنة فالقتل جزاء القتل ولكنها تظهر العجز والنفص أمام الآية الكريمة ففضلاً عن إحتواء الآية على المعنى الأصلي ترتب عليها معانٍ أخرى منها الإبانة عن العدل في حكم القصاص وإبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ومنها الاستدعاء بالرغبة والرغبة لحكم الله به (4)

فالقاتل لا يترك سدىً بدون عقاب بل عليه القصاص وما يترتب عليه من مخافة الله والحفاظ على حدوده ومردوده الإيجابي على الحياة والمجتمع بينما دلت المقولة

أما من ناحية الإيجاز فقد وردنا كلاهما موجزتين إيجازاً واضحاً للعيان إلا أن الآية الكريمة كانت أكثر إيجازاً من المقولة الثانية مع غنى الآية بالمعنى والدلالة الأكيدة (ذلك أن من دواعي ثراء نص ما أن يتسع محموله الدلالي وتصغر بنيته السطحية بوساطة الاقتصاد في الأداة التعبيرية ويدخل في باب الاقتصاد في الأداة الإبتعاد عن التكرار المتكلف الذي هو ضرب من الممارسة الشكلية) (5)

إن الأداة التعبيرية في كل نص الصوت والتمثيل بالحرف ومجموعة المكون للألفاظ فكانت عبارة (القصاص حياة) أصغر مساحة من (القتل أنفى للقتل) بأربعة حروف مع إتساع المساحة للمعاني الكثيرة.

أما الطبع فمن أسس التفوق عند الرماني والآية الكريمة مشفوعة بالطبع السلس لذا كانت أحلى في السمع من المقولة النثرية لأنها اعتمدت التكرير كأداة للتعبير فكانت بتكريرها هذا متكلفة.

1 - المصدر نفسه، 95.

2 - ينظر : النكت في اعجاز القرآن - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن الرماني : 76 .

3 - البقرة : 179 .

4 - النكت في اعجاز القرآن : 77 وينظر : كتاب الصناعتين ، العسكري : 175 .

5 - المصدر نفسه : 77-78 .

أما رابع الأرتكازات حسنُ التأليف المتمثل بالإننتقال الموسيقي المتلائم من صوت الى صوت مع إعتماـد مخارج متناسقة والأنتقال المترابط من لفظة الى أخرى فكان إنتقال النفس وجريه في الآية بما يلائم مخارج الحروف أبهر عما في المقولة الثانية

فكان الأنتقال من (الفاء) في (في) الى (اللام) في (القصاص) أعدل من الانتقال من(اللام) في(القتل) الى (الهمزة) في (أنفى) ومن (الألف) في (أنفى) الى (اللام) في (القتل)⁽¹⁾.

وهناك إشارة من الرماني الى ضرورة تلاؤم الصوت مع دلالة المعنى.

وبعد أن إستكمل الرماني شرح الأركان الأساسية التي بني عليها موازنته يصل الى نتيجة أكيدة مفادها : (وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه وتأملت ما جاء في القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام وهو علوه على غيره من سائر الكلام وعلوه على غيره من أنواع البيان)⁽²⁾.

فلم يك تفضيل القرآن من قبل الرماني إختياراً شخصياً بل كان على أساس علمي تفوق به النص القرآني على النص الأدبي فكان التوجه الى القرآن بالعقل والقلب معاً.

ويعقد الرماني موازنة بين الفواصل في القرآن والفواصل في النثر وخاصة في السجع ويشير الى أن الفواصل في أصل وضعها كانت لتبيان المعنى وإفهامه وفواصل القرآن كذلك.

- فواصل القرآن = اللفظ يتبع المعنى + حسن الأفهام والإيضاح بأيسر كلفة.

- فواصل الأسجاع = المعنى يتبع اللفظ + الإيغال في التعقيد مع سماجة الصنعة. هذا من وجهة نظر الرماني.

أما الموازنة في نظر الخطابي أبي سليمان حمد بن محمد (ت 388 هـ) فكانت تعتمد على المعنى ودلالة اللفظ عليه واعتماد الطبع كأساس للموازنة.

إن الانتظام يبين اللفظ والمعنى والطبع العذب شملته بنية القرآن التركيبية كم أنه أتى على حسن الفائدة التي قال بها الرماني سابقاً وبعد أن يضع الخطابي هذه الأسس الفريدة الوجود وبعد إفهامها للقارئ جاز له الآن أن يعرض نماذج هي في حقيقتها مردولة إلا أن علمية الموازنة و موضوعيتها تحتم المقارنة ليزهق الباطل وينتصر الحق.

فكانت أمثلة الموازنة أقوال لبعض المكذبين والمعارضين من أمثال مسيلمة الكذاب وموازنتها ببعض الآيات الكريمة والتي على منوالها نسجت الأقوال المعارضة من جهة ومجمل القرآن الكريم من جهة أخرى.

ويضرب لنا مثلاً من أمثال مسيلمة الكذاب قوله : (يا ضفدع نقي كم تتقين لا الماء تكدرين ولا الوارد تتفرين) وكما حكي عن بعضهم من قوله : (ألم تر الى ريك كيف فعل بالحلبى أخرج منها نسخة تسعى بين شرا سيف وحشى) وكما قال آخر منهم : (الفيل وما أدراك ما الفيل له مشفر طويل وذنب أثيل وما ذاك من خلق ربنا بقليل)⁽³⁾.

1 - التأويل وقراءة النص (اطروحة دكتوراه) : سرحان جفات , جامعة بغداد : 1999 - 50 .

2 - ينظر النكت في اعجاز القرآن : الرماني , 78 .

3 - المصدر نفسه : 80 .

يبدأ الخطابي بالموازنة ويجملها بالنقاط الآتية :

- (1) إنعدام الفائدة في النص المعارض فهو كلام غث وعرفنا أن أساس حسن الكلام الفائدة وتامها فكلام مسيلمة وغيره مجموعة ألفاظ جرت الى معانيها جراً لتبلغ عن فراغ في تأليف ركيك.
- (2) التكلف : أن إنعدام الفائدة وما يترتب عليها جعلت النص متكلفاً أساسه الصنعة بينما كان الكلام الإلهي كامل الفائدة وحسن الطبع جيدة.

وأشار الخطابي الى ظاهرة ملحوظة بين فيها أن من أهم أسباب المعارضة بين كلام وكلام هو الأتيان بشيء جديد في اللفظ والمعنى أما إذا أخذ الثاني من الأول بطلت المعارضة وبطلت الموازنة حتماً ففي قوله : (ألم تر الى ربك كيف...) و (الفيل وما أدراك ما الفيل...) فهذه كلمات مسروقة عيناً من النص القرآني مع إختلاف في الترتيب وهذ بدوره أبدى العجز في النص المعارض فلا يعرف من قوله مثلاً : ألم تر الى ربك كيف... أراد منها الترهيب أم الترغيب أو الأهانة أو الإبانة عن معاناة المرأة أثناء الحمل.

أما الباقلائي أبو بكر محمد بن الطيب (ت 403هـ) فقد كان حريصاً فهو في بداية الأمر يصرح بتفوق القرآن على سائر الأجناس فأسلوبه خاص يتميز عن الأساليب القولية الأخرى وذلك في قوله : (القرآن له أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن الأساليب المعتادة وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعايير الشعر على إختلاف أنواعه ثم الى أنواع الكلام الموزون وغير المقفى ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم الى معدل فموزون غير مسجع ما يرسل إرسالاً فتطلب فيه الأصابة والإفادة وإفهام المعاني المفترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وإن لم يك معتدلاً في وزنه (1).

إن الباقلائي يشير الى إتحاد الأجناس جميعاً في القرآن وعدم تفرد القرآن بجنس خام بحد ذاته فالقرآن أساس تتفرع منه الأغصان الأخرى.

وبعد فإن الباقلائي يريد التفصيل نوعاً ما فعقد موازنة بين قصيدة امرئ القيس والقرآن الكريم. الباقلائي او يفتح باباً بين القرآن والنثر وإنما لمح اليها تلميحاً وكأنه أراد من قارئ النص أن يستنبطها بنفسه ببيان فطنته ولكنه أعطانا الخطوط الأولية وذلك من خلال إيراد بعض الخطب الخاصة بالرسول (ص) والخلفاء وبعض الساسة من رجالات الدولة الأموية وما بعدها.

اسس الموازنة عند الباقلائي بما يلي :

(1) قدسية المنهج :

آمن الباقلائي بانفصال منهج القرآن عن منهج الشعر والنثر وإن المنهج الأخير هو ذلك المنهج الذي وضعه السلف وسار عليه الخلف إلا بعضهم قد خالف الطريق وأتى على بعض المنهج دون كله فالنثر والناظم تارة يأتي بنصه متكامل المنهج وتارة يأتي به ناقصاً وهذا هو حال البشر دائماً أما المنهج في القرآن فهو (نظم خارج عن جميع وجوه المظم المعتاد في كلامهم ومباين لأساليب خطابهم) (2).

¹ - بيان اعجاز القرآن : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : الخطابي : 55 .

² - اعجاز القرآن ك الباقلائي , تحقيق : أحمد صقر , دار المعارف . 1963 : 35 .

(2) إن كلام البشر - شعر ونثر - فيه الغريب والوحشي والمستكره الدخيل المولود المستحدث فيه الصنعة المتكلفة والتأليف المتردي فهو كلام ينتج من تحت المرتبة المتوسطة أو دونها. بينما نجد كلامه تعالى عربياً قحاً يمثل اللسان المبين فكل كلمة عربية متينة قال الباقلائي : (ولا مستكرة في اللفظ ولا مستوحش في المنظر) (1).

(3) الفرادة في استخدام الأساليب البيانية :

لقد أشار الباقلائي الى مغزى الأساليب البيانية في القرآن وفي الكلام العادي وتوصل الى أن استخدام الأساليب في القرآن بمختلف عما عليه في الكلام العربي المتداول ذلك من حيث المعنى يعطينا أمثلة متعددة نجتئزئ منها صيغة التكرار في القرآن وفي النثر.

إن من عادة العرب التكرار ليفهم عنها ولتبلغ عن مرادها (2).

أن الحاجة المعنوية أو النفسية هي التي تفرض على الملقى أن يكرر قوله بلفظة أحياناً أو بلفظ آخر يدل دلالة واضحة على اللفظ الأول.

وما الهدف من كل ذلك إلا التوكيد توكيد المعنى في قلب المتلقي.

أما التكرار في القرآن الكريم فلا يمكن أن يقال بشأنه أنه توكيد المعنى فهل أن الله تعالى غير قادر على تبيان معناه ليؤكد بلفظ مكرر!

حلل الباقلائي بعض السور المشتملة على التكرار وفسرها بما يبعدها عن دواعي التكرار في الكلام العربي ومن هذه الآيات ما جاء في سورة المرسلات من تكرر لقوله تعالى : (ويلٌ يومئذ للمكذبين)

وكان شرحه وتفسيره موافقاً لمجمل ما قاله المفسرون في هذا المجال ويقول الباقلائي أنه تعالى ذكر فيها أمر بعد أمر ثم قال عقيب كل شيء ذكره من ذلك (ويلٌ يومئذ للمكذبين) بالأول و (ويلٌ يومئذ للمكذبين) بالثاني وربما كان الويل الثاني لغير الويل الأول فعلى هذين التأويلين ليس في السورة تكرر.

أما تكريره في قوله تعالى في سورة الرحمن (فبأي آلاء ربكما تكذبان) فإنه ليس بتكرار لأنه عدد نعماً متعددة ثم قال لأتس والجن عقيب كل فضل (فبأي آلاء ربكما تكذبان) (3).

أما فكرة الموازنة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني يمكن تلخيصها من خلال رسالته الشافية.

فالموازنة عنده تقوم على أركان منها :

(1) زمنية النص (2) فرادة النص (3) الانبهار في تحقيق الغرض.

الجرجاني يؤكد على أن عقد موازنة بين القرآن وأي نص أدبي سواء أكان نثري أم شعري لا تكون لأن القرآن معجم عربي شمل كل العصور من الجاهلي والإسلامي ونزل لكل بيئة مدنية وصحراوية أما الأديب فمحكوم عليه بزمن معين وبيئة معينة ويستلهم منها ما يعينه على النتاج الأدبي كما ان عملية التحديد هذه تفرض عليه معان محددة استحدثها الواقع المعاصر الذي يعيش فيه.

¹ - م . ن : 50 .

² - م . ن : 302 .

³ - نكت الانتصار في اعجاز القرآن : أبي بكر الباقلائي : تحقيق : محمد زغلول سلام : منشأة المعارف

وعليه فإن الناثر وأمام هذه العقبات يستطيع التعبير عن معنى ويعجز أمام المعاني الأخرى (فقد يكون رجل... في المديح أشعر منه في المرثي... وترى الكاتب وهو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات وبالعكس... ولعل العجز الذي ظهر فيهم من معارضة القرآن لم يظهر لأنهم يستطيعون مثل ذلك النظم ولكن لانهم لا يستطيعون في مثل معاني القرآن)⁽¹⁾.

(فالتكرار الراقى غير توخي معاني النحو وإحكامه فما بين الكلم)⁽²⁾.

وتأسيساً على ما سبق يبين الجرجاني أساس الموازنة بين القرآن وأي نص آخر إيراد المعاني فالمعاني واحدة معروفة ولكن صياغة هذه المعني في نسيج إسلوبى هو الذي يميز القرآن عما سواه من النصوص الأخرى.

إن المرجعية الكلية للقرآن والفرادة في التعبير هما اللذان أديا الى الأنبيهار في القرآن فضلاً عن إنبيهار النقديس (وذلك أن الشرط في مزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها الى حيث يبهر ويقهر حتى تتقطع الأطماع عن المعارضة وتخرس الألسن عن دعوى المنادة)⁽³⁾.

وهنا كان تميز النص القرآني عن غيره من النصوص من باب إتمام الفائدة والدلالة وإخراجها بالطف وأرق مظهر بحيث يكون الدال والمدلول نظرية منظمة مثلت نظرية النظم والتي كانت أساس الإعجاز عند الجرجاني.

ثانياً :- الموازنة بين النثر والنثر

كانت الذات المنشئة في الموازنة السابقة غير متعادلة فالذات الألهية هي التي أنزلت القرآن بينما كان منشيء النص النثري الإنسان فهو من خلق الله تعالى وهنا جاءت هذه الموازنة لتعلن عن تكافؤ الذوات في تأليف نص نثري ونص نثري آخر فالموازنة هنا متعادلة لأن الذوات متكافئة وهذا الأمر بطبيعته يؤدي الى ركن الذات جانباً و الأهتمام بالنص فقط.

وإذا كان العقل والشرع أثبتا مقدماً تفوق القرآن على أي جنس أدبي آخر فالحال ليس كما هو عليه في هذه الموازنة (نثر - نثر) إذ وجب على الناقد وضع اليد على أسباب التفوق أو الإخفاق في هذا النص دون غيره.

وأول النقاد الذين وضعوا الخطوط الأولى للموازنة في مثل هذا النوع الجاحظ إذ عقد موازنة بين كلام رسول الله (ص) وكلام غيره من أهل الفصاحة والبلاغة.

قال الجاحظ : (وسنذكر من كلام رسول الله (ص) مما لم يسبقه اليه عربي ولا شارك فيه أعجمي ولم يدع لأحد ولا إدعاه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً. فمن ذلك قوله : (ياخيل الله إركبي) وقوله : (مات حتفه أنه)... وكما قال عدي بن حاتم في قتل عثمان رحمه الله : (لاتحبق فيه عناق... فلم يصر كلامه مثلاً وصار كلام رسول الله مثلاً... ومن ذلك قوله : (لا يلسع المؤمن من جحر مرتين) ألا ترى أن الحارث بن حدان حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب قال : أيها الناس أتقوا الفتنة

¹ - م . ن . 215 كررت الآية الكريمة (ويلك يومئذ للمكذبين) (10) مرات في سورة المرسلات أما في سورة الرحمن فقد كررت الآية الكريمة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) (31) مرة .

² - الرسالة الشافية : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : عبد القاهر الجرجاني : 1238 .

³ - دلائل الأعجاز : عبد القاهر الجرجاني : 300

فإنها تقبل بشبهة وتدبر ببيان وإن المؤمن لا يسع من حجر مرتين (فضرب بكلام رسول الله (ص) المثل...)⁽¹⁾.

لقد تمكن الجاحظ من حصر أهم الأسباب التي أدت الى تفوق كلامه (ص) على غيره رغم إشتراك الكلام في بعض الفقرات.

فإذا ما كانت المحبة المكونة في نفوس المؤمنين وعصمته من الخطأ والزلل من أهم أسباب التفوق كان الصدق في القول وشموليته للحدث في زمانه ومكانه مع إقترانه الجدة في التعبير من لفظ ومعنى من أهم أسباب حيازة السبق والجودة.

هذا ما عناه الجاحظ في عقد الموازنة وقد إستوحاة من قوله (ص) الذي بين به مقدار كرامة الله سبحانه وتعالى له فقال : (أتيت جوامع الكلم واختصر الكلام لي إختصاراً)⁽²⁾.

فالموهبة الإلهية كانت أساس تفوق كلام رسول الله (ص) - نثره - على نثر غيره.

هذا من الناحية الدينية أما من الناحية الأدبية فالواقع يشهد بذات الصفات التي مدح بها (ص) فالرسول وكما عاب التشدق والتعقيب - التكلم بأصى الفم - والذي يتخلل بلسانه تتحلل الباقرة نهى عن نفسه هذه الصفات المعيبة المتكلفة والتي تخرج الكلام من حيز البساطة لتوقعه الى الحزون والصعاب.

لقد أمر الله نبيه بأن يقول : { وما أنا من المتكلمين }⁽³⁾.

لقد مثل النبي (ص) الإسوة الحسنة المتمثلة بشخصية الملقى من مهابة وفصاحة فلكل مقام عنده مقال ولكل حال خطاب كما إن مواصفات نثره كانت أعلى ما يجب أن يكون عليه النثر.

المحمود السلس والإستعارة اللطيفة والتورية الصادقة والكتابة وخطبه ومواعظه وحكمه كنت بمثابة نصوص كاملة فلم يحتج الرسول الكريم الى التطويل للإفهام وام يعن بالتركرار وإنما كان لفظه مقصود ومعناه غني (فلا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه (ص))

لقد تعاونت أسباب النجاح في قوله (ص) فالواقع متوافر فيه والنغم الجميل الصافي النابع من السجع الهادفة.

إن قصد الجاحظ بهذا الإيحاء وصف كلامه(ص) بما يمكن أن يطلق عليه ب (السهل الممتع) الذي لا يمكن أن يأتي لأي شخص الا من كانت له حفاوة ومحبه من الله تعالى أنزلت في قلوب المسلمين مما جعلت أقوال الرسول (ص) توافق صفاته

إتبع العرب نهج النبي (ص) فكانت ألفاظهم تقارب ألفاظه ومعانيهم تقارب معانيه لأنهم لا قوة وأخذوا عنه وحفظوا منه وكيف لهم غير ذلك والرسول بينهم.

وهذا الكلام ينطبق على كلام الخلفاء الراشدين ولو أخذنا نموذجاً لهذا الحال نجد أن نثر الإمام علي (ع) متقارباً كل القرب من كلامه (ص) فالألفاظ منتقاه والمعاني دالة على الحدث دلالة واضحة أكيدة.

¹ - الرسالة الشافية: عبد القاهر الجرجاني : 129 .

² - البيان والتبيين : الجاحظ : 16- 15 / 2 .

³ - م . ن : 17 .

لو أخذنا قوله: (أين من سعى وإجتهد وجمع وعدد وزخرف ونجد وبنى وشيد فقد إتبع كل حرف بسجع من جنسه ولم يقل سعى ونجد وزخرف وعدد ولو كان كلاماً وبيّن بينهما كما بين السماء والأرض)⁽¹⁾. إن الكلام الأدبي ليس عملية ضم الألفاظ دون إتساق وإنما هو عملية للتناسق بين الجيد والجميل والحسن والحسن ولهذا الأسباب سميت خطب الإمام علي (ع) بالزهراء والفراء والبيضاء⁽²⁾. وقد علل صاحب البرهان أسباب هذا التفوق والتفرد بهذه الألقاب وذلك لما إشمطت عليه خطبه ورسائله من إيجاز وتطويل في آن واحد فسلم من التقصير عندما كان موجزاً والإطناب عندما كان طويلاً. وإذا ما أريد تقسيم الكلام النثري الى أقسام عدة هذا الصنف من أول أقسام النثر الفني وهو ما يمكن أن يطلق عليه بالنثر البليغ وذلك اما إشمطت عليه من البلاغة والإيضاح و الإفهام والفصاحة أما القسم الثاني فهو الكلام الحامل لصفة الإفهام فحسب وليس فيه أي وجه من وجوه البلاغة فلو أخذنا معنى الكاتب الذي كتب الى بعض عامليه لوجدنا ه معنى مقتصراً على الإفهام فحسب دون البلاغة قال: (قد تأخر الأمر فيما وعدت حملته ضحوة النهار والقوم غير مقيمين وليس لهم صبري وهم في الخروج أنفاً فإن رأيت في إزاحة العلة مع الجهد فقلت إنشاء الله)⁽³⁾.

أن هذا الكلام على الرغم من وضوح ألفاظه نلاحظ خلوه من الصفات التي تجعل النص قيماً فهو كلام تقريرى خطابي خالٍ من أصناف البديع وأساليبه ونتيجة لذلك بدا هذا النص غير مترابط الأجزاء. أما الصنف الثالث من أصناف النثر هو الكلام الحافل بأساليب البيان والبديع من كناية وتهكم وتشبيه... الخ وهذا الكلام يعد مفهوماً ومن أمثال هذا النوع ما أورده العسكري في الصناعتين قول أحدهم:

كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب فخرج الى ضيعة له على حجرٍ ومعه مهرٌ فأفلتت فذهبت ومعها مهرها فخرج يسأل عنها فمر بخياط فقال: ياذا النصاح وذات السم الطاعن هل رأيت الخيفانة يتبعها الحاسن المسرهف كان غرته القمر الأزهر قال: الخياط اطلبها في تزلخ: فقال ويلك ما تقول قبحك الله؟ فما أعلم رطانتك. فقال: لعن الله أبغضنا لفظاً وأخطأنا منطقاً...⁽⁴⁾.

إن هذا الكلام وعلى الرغم من احتفائه بصور البديع المختلفة إلا انه صعب على الإفهام فلا يفهمه من هو في الطبقة الوسطى أو ما دونها فهو كلام خاص لا يقال إلا الى الخاصة فالكنايات التي في النص تحتاج الى نوع من التدبر والتفكير حتى يتم استخلاص المعنى فهو كنى الخياط بلقب (النصاح) وجعل الإبرة ذات السم وشبه الإبرة ودخولها في الثوب بالسيف واختراقه جوف القليل ثم عمد الى تشبيه حجره (الأنثى من الخيل) بالناقة السريعة و وصف مهره بالحسن وتكامل الصحة من ناحية الغذاء فما كان من رد المقابل إلا التهكم في الرد عاى هذه الألفاظ التي عدت بكناياتها وتشبيهاها غريبة ومتكلفة. هذا من ناحية الكلام المنقول من شخص الى آخر وتفاوته ودرجاته من ناحية الفصاحة والبلاغة.

¹ - (24 - ص : 86 وتلاوتها قل ما انتقلكم عليه من أجر وما أتا من المتكفين .

² - البيان واتبيين : الجاحظ : 18-17 / 2 .

³ - البلاغة : المبرد : 37 . وينظر البرهان , ابن وهب الكاتب : 129 مع اختلاف الرواية .

⁴ - ينظر : البرهان : ابن وهب الكاتب : 161

ومن الأمثلة التي تمثل الموازنة بين الحقيقة والمجاز هو ما نقله عبد القاهر الجرجاني (1)

- رأيت أسداً
 - رأيت رجلاً يشبه الأسد في شجاعته وجرأته.
- لقد اعتمد الجرجاني في الموازنة أن أساس التأثير في النفس أولاً أي : العبارتين أدل من غيرها على تمام المعنى وفائدته واعتماداً على هذا المنطق صرح الجرجاني بتفوق عبارة القائل (رأيت أسداً) على من قال في إيراد المعنى نفسه (رأيت رجلاً يشبه الأسد ...).
- إن هذا التأثير المتكامل في العبارة الأولى ناجم عن بلاغة الاستعارة فيها إن المعاني المترتبة من وجود هذا النوع من البلاغة كثيرة ومتنوعة ويمكن حصرها ب (المساواة بالأسد + تأكيد المساواة وإثباتها).
- أما المعاني المترتبة في العبارة الثانية هي معاني متذبذبة تتراوح ما بين الثبوت والنفي فالعلاقة بين الرجل والأسد في العبارة الثانية تتأرجح بين اثبات المساواة أو نفيها.
- أن من أهم الأشياء التي تحمد للعبارة الأولى الإيجاز فالإيجاز هو الذي يحدد الألفاظ ويجعلها أدق في التعبير عن المعنى. والزيادة في الألفاظ تؤدي إلى زيادة المعاني وعليه فإن العبارة الأولى بإيجازها أحمد من العبارة الثانية التي كانت بتطويلها بعيدة عن الإيقاع والتأثير في النفس.
- ومن أمثلة هذا النوع الموازنة التي جرت بين خمس جوارٍ وما دار بينهن كلام في وصف خيل آبائهن (2).

وقيام الموازنة بين نصوص الجوارى في وصف خيل آبائهن بالاعتماد على قوة الألفاظ ودلالة المعنى من ناحية التخيل والتأثير.

الخاتمة

توصلت في بحثي الموسوم (من اسس نقد النثر عند العرب /دراسة موازنة بين القرآن والنثر) القرآن لسان العرب وهو الأصل ومنه تتفرع الأصناف الأدبية الأخرى لذا فإن إجراء موازنة بين النص النثري وما حواه من الصفات السابقة تنهار وتتضاءل بعدم تكافؤ الذوات من جهة وشمولية القرآن من جهة أخرى فالقرآن يمثل نظرية تكاملية بحد ذاتها إذ يعد الأصل (الكل) وغيره الفرع فالموازنة غير متكافئة بينه وبين أي نص آخر .

- شهدنا بوجود علاقة حميمة بين النص وركني قيام النص (المنشئ والمتلقي) فالناثر يهدف من إنشائه التوصيل والأفهام لذا ترتب على المنشئ واجبات كما ترتب على النص واجبات.
- الأخذ (لكل مقام مقال ولكل حال خطاب) الخطوة في توصيل النص
- تميز النص النثري الجيد بمواصفات أساسية يشترك فيها مع الشعر خاصة والأدب عامة الوحدة في النثر من خلال إيجاد العلاقة الوطيدة بين الألفاظ والمعاني والطبع والتطبع، وتوفر الإيقاع والجرس الموسيقي بتوافر الفنون البديعية وتلاؤم الألفاظ في الجملة، وتميز النثر بصفة الصدق (الفني + الواقعي)

¹ - الصناعتين : ابو هلال العسكري : 11 .

² - الأمالي : القالي : 187/1 - 188 .

واعتماد النص في أساس تكوينه علاقته بمرجعياته أي ملقيه وشخصية الملقى تظهر من أسلوبه لهذا فقد كان لكل ناثر أسلوبه في التعامل واختلاف الأساليب لا تبعد المنهج المختط للعمل النثري ويكون الأسلوب بمعنى النكهة الأدبية التي تميز هذا النص عن ذلك وتحقق بالتالي قيمته الفنية.

قائمة المصادر والمراجع :

1. القرآن الكريم.
2. الأتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي تصحيح لجنة من العلماء - القاهرة , الندوة , بيروت - 1951.
3. أعجاز القرآن : ابو بكر محمد بن الطيب الباقلائي تحقيق : أحمد الصقر , دار المعارف -1963.
4. ألوان : طة حسين : دار المعارف - مصر 1958.
5. الأمالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي : تحقيق : مصطفى اسماعيل , ط3 , مطبعة السعادة - 1953
6. البرهان في وجوه البيان : ابو الحسن اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب , تحقيق : احمد مطلوب , وخديجة الحديثي , ط1 ونشر , جامعة بغداد , -1967.
7. البلاغة : ابو العباس المبرد , تحقيق : رمضان عبد التواب , ط2 , مطبعة المدني -1985.
8. البيان والتبيين : ابو عثمان عمر بحر الجاحظ , تحقيق : عبد السلام محمد هارون , ط5 , مكتبة الخانجي , -القاهرة - مطبعة المدني -1985.
9. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل : القاضي ابو بكر محمد بن الخطيب الباقلائي : تحقيق عماد الدين احمد حيدر , ط1 و بيروت , مؤسسة الكتب اللبنانية -1987.
10. ثلاث رسائل في اعجازالقرآن : (الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي تحقيق : محمد خلف الله محمد زغلول سلام. ط2 , دار المعارف مصر -1968.
11. بيان أعجاز القرآن : ابو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي.
12. النكت في اعجاز القرآن : ابو الحسن علي بن عيسى الرماني.
13. الرسالة الشافية : عبد القاهر الجرجاني.
14. دلائل الأعجاز : عبد القاهر الجرجاني , تحقيق : محمد عبدة - محمد محمود التركي , وقف عليه وصححه : محمد رشيد رضا , ط1 , دار الكتب العلمية -بيروت -1988.
15. كتاب الصناعتين (الكتاب والشعر) : ابو هلال الحسن عبدالله بن سهل العسكري , تحقيق : علي محمد البجاوي , محمد ابو الفضل ابراهيم , ط1 , دار احياء الكتب العربية -1952.
16. المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين : طه حسين : دار الكتب اللبناني -بيروت - ط1 - المجلد الخامس و د. ت.
17. الموازنة بين الشعراء : زكي مبارك : ط2 , دار الكتاب العربي للطباعة والنشر و 1936.
18. نكت الأنتصار لنقل القرآن : ابو بكر الباقلائي , دراسة وتحقيق : محمد زغلول سلام و منشآت المعارف بالأسكندرية. د. ط. د. ت.
19. اعجاز القرآن في ضوء اللسان العربي المبين (اطروحة دكتوراه) : حمزة فاضل , جامعة بغداد , 1998.
20. التأويل وقراءة النص في دراسات الأعجاز القرآني (اطروحة دكتوراه) : سرحان سلمان جفات , جامعة بغداد و 1998.

List of sources and references:

1. The Holy Quran.
2. Perfection in the Sciences of the Qur'an: Jalal al-Din al-Suyuti, Edited by a Committee of Scholars - Cairo, Symposium, Beirut -1951.
3. The Miracles of the Qur'an: Abu Bakr Muhammad Bin Al-Tayyib Al-Baqlani, Edited by: Ahmad Al-Saqr, Dar Al-Maaref -1963.
4. Alwan: Taha Hussein: House of Knowledge - Egypt 1958.
5. Al-Amali: Abu Ali Ismail bin Al-Qasim Al-Qali: Investigated by: Mustafa Ismail, 3rd edition, Al-Saada Press -1953
6. The proof in the face of the statement: Abu al-Hasan Ishaq bin Ibrahim bin Suleiman bin Wahb al-Katib, investigation by: Ahmed Matlab, and Khadija al-Hadithi, 1st edition and published, University of Baghdad, -1967.
7. Al-Balaghah: Abu Al-Abbas Al-Mubarrad, investigative: Ramadan Abdel-Tawab, 2nd edition, Al-Madani Press -1985.
8. Al-Bayan and Al-Tabeen: Abu Othman Omar Bahr Al-Jahiz, investigation: Abdel Salam Muhammad Haroun, 5th edition, Al-Khanji Library, Cairo - Al-Madani Press - 1985.
9. Prelude to the early ones and summarize the evidence: Judge Abu Bakr Muhammad bin Al-Khatib Al-Baqlani: Investigated by Imad Al-Din Ahmed Haidar, 1st Edition, Beirut, Lebanese Book Foundation -1987.
10. Three treatises on the inimitability of the Qur'an: (Al-Rumani, Al-Khattabi, and Abdul-Qaher Al-Jarjani) in Qur'anic studies and literary criticism, investigated by: Muhammad Khalaf Allah Muhammad Zaghoul Salam. I 2, Dar Al-Maaref, Egypt - 1968.
11. Explanation of the miracles of the Qur'an: Abu Suleiman Hamad bin Muhammad bin Ibrahim Al-Khattabi.
12. Jokes about the inimitability of the Qur'an: Abu Al-Hasan Ali Bin Issa Al-Ramani.
13. The healing message:
14. Evidence of Miracles: Abd al-Qaher al-Jurjani, investigation: Muhammad Abda - Muhammad Mahmoud al-Tarkazi, endowed on it and corrected by: Muhammad Rashid Rida, 1st edition, Dar al-Kutub al-Ilmiyya - Beirut -1988.
15. The Book of the Two Industries (Book and Poetry): Abu Hilal Al-Hassan Abdullah bin Sahel Al-Askari, investigative: Ali Muhammad Al-Bajawi, Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, 1st Edition, House of Reviving Arabic Books -1952.
16. The complete collection of Taha Hussein's books: Taha Hussein: The Lebanese House of Books - Beirut - 1st Edition - Volume Five and Dr. T.
17. Balancing the Poets: Zaki Mubarak: 2nd Edition, Dar Al-Kitab Al-Arabi for Printing and Publishing, 1936.
18. Al-Intisar Jokes for the transmission of the Qur'an: Abu Bakr Al-Baqlani, study and investigation by: Muhammad Zaghoul Salam, and the knowledge facilities in Alexandria. Dr. T. Dr.. T.
19. The Miracle of the Qur'an in the Light of the Clarified Arabic Language (PhD thesis): Hamza Fadel, University of Baghdad, 1998.
20. Interpretation and Reading the Text in Studies of the Qur'anic Miracles (PhD thesis): Sarhan Salman Jafat, University of Baghdad, 1998.